بلاغة المعنى المفرد للفظة القرآنية في ضوء السياق

(البروج –الأسف- الفحشاء)

أنموذجاً

إعداد

د. الشيماء محمد الفرهود

الأستاذ المساعد في كلية الآداب والفنون

جامعة حائل

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السياق القرآني سياق عظيم المنزلة رفيع القدر، وهو من أهم ما يعين على الوصول للفهم الصحيح لكتاب الله عز وجل، وقد عُني المفسرون منذ وقت مبكر بالسياق القرآني ؛ لما له من أثر فعال في الكشف عن مراد الله تعالى في كتابه، إلى جانب القرائن الأخرى، كأسباب النزول، والدلالة اللغوية.

ويحاول هذا البحث أن يسير على نهج السلف من البلاغيين والمفسرين في دراسة الإعجاز من خلال دراسة بعض المعاني المفردة من ألفاظ القرآن الكريم، ومنها (البروج ـ الأسف . الفحشاء) والتي يحدد معاناها عن طريق دلالة السياق في الآية الكريمة والسورة بشكل عام.

أما منهج البحث الذي سرت عليه، فهو المنهج التحليلي القائم على الدراسة السياقية، حيث إن السياق هو مناط الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها.

وقد جاء البحث في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي :

التمهيد فقد تحدثت فيه عن تعريف السياق، وأثره في الكشف عن مزية المعاني.

المبحث الأول فهو : بلاغة لفظة (البروج) في القرآن في ضوء السياق.

المبحث الثاني : بلاغة لفظة (الأسف) في القرآن في ضوء السياق.

المبحث الثالث : بلاغة لفظة (الفحشاء) في القرآن في ضوء السياق.

ثم خاتمة وهي تلخيص لأهم ما توصل إليه البحث من نتائج

التمهيد

تتسم المفردة القرآنية بقابليتها لحمل وجوه عدة للفهم والتأويل، وتتبين تلك الأوجه من خلال السياق، وهذا هو منهج البلاغيين والمفسرين في دراسة المفردة القرآنية، فكل مفردة تحمل عدة معان، حيث تظهر تلك المعاني وتلك الخصوصية لكل لفظة من خلال التتبع السياقي لها داخل الآية والسورة.

فالمنهج البلاغي في دراسة المفردة القرآنية هو رصد حركة المعنى من خلال السياق، لقوة أثره في الكشف عن المعاني وتحديدها والوقوف على الفروق الدقيقة فيما بين معاني الألفاظ.

المطلب –الأول : مفهوم السياق لغوياً :

السياق لغة : يقول الراغب الأصفهاني : " سَوْق الإبل : جلْبها وطردها يُقال : سُقته فانساق... والسَّويق سُمِّي لانسياقه في الحلق من غير مضغ "[(١)].

ويقول ابن منظور : " وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقًا إذا تتابعت... والمساوقة : المتتابعة كأن بعضها يسوق بعضًا... وساق إليها الصِّداق والمهر سياقًا وأساقه ؛ وإن كان دراهم أو دنانير ؛ لأن أصل الصِّداق عند العرب الإبل وهي التي تُساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما... وفي صفة مشيه ﷺ : كان يسوق أصحابه ؛ أي يقدِّمهم ويمشي خلفهم تواضعا... "[(٢)].

المطلب– الثاني السياق اصطلاحياً: هو " النظم التركيبي للكلام الذي يُوجِّه دلالة الكلمات والجُمَل والفقرات ؛ بناء على موقعها في النص، واستنادًا إلى العلاقات

(١) مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهاني، ت : صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، ص٤٣٦ (مادة : سوق).

(٢) لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ، ج١٠/١٦٦-١٧٠ (مادة سوق).

المعنوية بينها؛ بما يتفق في النهاية مع الغرض العام للكلام،ومع جملة الظروف الخارجية المصاحبة له "[1].

و السياق هو جوهر المعنى الذي يعطي للفظة تلك المزية والخصوصية من خلال تلك العلاقة بين المفردات بعضها ببعض في أي سياق من السياقات.

المطلب –الثالث دور السياق في تحديد المعني :

أدرك العلماء القدماء والبلاغيون دور السياق في تقرير معنى المفردة وتحديده، وكيف أن المفردة إلى جانب أختها والجملة إلى جانب أختها تبنيان نصًا متكاملاً، وهذا ما أطلق عليه البلاغيون (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ومقولتهم الشهيرة : (لكل مقام مقال).

وقد أشار إلى هذه الفكرة بشر بن المعتمر في صحيفته فالعبرة عِنده في حديثه عن اللفظ والمعنى، ليس بشرف اللفظ ولا بشرف المعنى، وإنما مدار الشرف هو مراعاة المقام والموازنة بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين " فتجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات "[2].

والحقيقة أن الألفاظ المفردة لا يتصور أن يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة ومجردة دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، وهذا ما أشار إليه شيخ البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجاني في قوله : " وهل يقع في وهم – وإن جهد – أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم... وهل

(١) الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، سامي العجلان، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ، ص٥٥.
(٢) الصناعتين في الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ت : مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، ص١٥٣.

تجد أحدًا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها "[1].

فلم تكن نظرية النظم عند عبد القاهر إلا تنظيرًا لفكرة (المقام) و (السياق) وما يناسبه من أساليب التعبير، فنظرية (النظم) عنده ما هي إلا مطابقة الكلام لمقتضى الحال وهو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام.

ولأهمية السياق جعله العلماء دلالة من أهم الدلالات المرجحة عند اختلاف الآراء وتعدد الأقوال، وفي تقرير هذا يقول ابن القيم : " السياق يُرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوُّع الدلالة. وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم. فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (الدخان : ٤٩) ؛ لنرى كيف وجه السياق دلالة معنى (العزيز الكريم) لتدل على معنى مناقض لظاهر الآية وهو (الذليل الحقير) "[2].

فالمفسر يجب عليه في تفسيره أن ينظر إلى السياق ليتمكن من فهم الآيات على الوجه الأصح ؛ليدرك الفروق الدقيقة بين المعاني المشتركة للفظة الواحدة، وفي هذا يقول الزركشي : " ليكن محطّ نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف

(١) دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، ت.د/ محمد رضوان، د/ فايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ص٩٠-٩١.

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، ت : أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ٢٢٢/٤.

أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوُّز ؛ ولهذا ترى صاحب (الكشاف) يجعل الذي سيق له الكلام معتمدًا، حتى كأنَّ غيره مطروح "[1].

هذا هو منهج السلف من البلاغيين والمفسرين حيث أدركوا قيمة السياق ودوره الهام في تقرير معنى المفردة وتحديده، والوقوف على الخصوصية الدلالية لألفاظ القرآن.

(١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، ت : محمد أبو الفضل، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، ٣١٧/١.

المبحث الأول

ورود المعنى للفظة المفردة(البروج) في القرآن

في ضوء السياق

المطلب الأول – ورود معنى الفظة البروج بمعنى (الكواكب والأفلاك السماوية) في ضوء السياق القرآني :

وردت لفظة (البروج) في القرآن الكريم في أربعة مواضع، اشتركت ثلاثة منها في معنى واحد (الكواكب والأفلاك السماوية)، في سورة الحجر، والفرقان، والبروج. بينما انفردت في موضع آخر بمعنى (الحصون والقصور)، في سورة النساء.

الموضع الأول – دلالة معنى لفظة البروج على(الكواكب والأفلاك السماوية) في ضوء السياق القرآني في سورة الحجر :

قال تعالى :﴿لَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ (سورة الحجر : ١٦).

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق عرض الدلائل والبراهين على قدرة الله تعالى وتفرده بالألوهية بعد ما عرض الحق سبحانه لتكذيب المشركين برسالة محمد –ﷺ– "فيقول تعالى – مبينًا كمال اقتداره ورحمته بخلقه – : (وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا) أي : نجومًا كالأبراج والأعلام العظام يُهتدي بها في ظلمات البر والبحر، (وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ) فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على باديها "[1].

وعند النظر إلى المعنى اللغوي للفظة البروج مادة (باء – راء– جيم)، نجد أن أصلها يدور في الغالب حول (البروز والظهور)، ومنه البَرَج وهو سعة العين في شدة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، ص٤٢٦.

سواد سوادها وشدة بياض بياضها،ومنه التبرج، وهو إظهار المرأة محاسنها،والبُرُج واحد بُروج السماء "[1].

قال ابن منظور : " والبُرُج واحد من بروج الفلك وهي اثنا عشر برجا... والجمع أبراج وبُرُوُج.. قيل ذات الكواكب "[2].

وللوقوف على بلاغة المعنى السياقي للفظة المفردة (البروج) في سورة الحجر،لابد من الربط بين معناها في ضوء السياق العام للسورة، بدأ من دلالة مسمى السورة (الحجر) والتي يدور معناها حول (الجمع والاستدارة)التي روحها الإحاطة المميزة للمحاط به من غيره بلا لبس، وعليه فإن سياق السورة يدور حول إثبات قدرة الخالق عز وجل وألوهيته من خلال ذكر مخلوقاته الكونية الظاهرة، ومنها (الأفلاك السماوية).

أضف إلى افتتاح السورة بقوله تعالى، :﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ لنجد دلالة ضمير البعد(تلك) على علو مكانة مقام تلك الآيات، وبعد مقصدها.

يجيئ المعني السياقي للمفردة : (بروجا) جمع برد ليدل معناها على منازل للقمر، وهو في الأصل القصر العالي[3]، لنجد التناسب واضحا بين المعنى السياقي للفظة (البروج) مع السياق العام للسورة ومقصدها، من ظهور الآيات ظهورا واضحا لا لبس فيه كظهور القمر بمنازله الذي لا يخفى على عيون الناظرين.

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت : عبد السلام هارون، دار الفكر، ط ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ٢٣٨/١.

(٢) لسان العرب، جمال الدين بن منظور، ط دار عالم الكتب، الرياض، ط ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، ٣٤/٢، مادة : (برج).

(٣) ينظر : نظم الدرر، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ، ٢٩/١١.

ولما كان القرآن الكريم عالي المكانة والمنزلة ؛لهدايته للناس لطريق الحق، ناسب ذلك السياق دلالة معني (بروجا) على الأفلاك العالية في السماء ليهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر.

وخير دليل على ذلك تناول "البقاعي "لمادة (البرج) لنجدها عنده (بكل تقليب تدور على الظهور الملزوم للعلو الملزوم للقوة...

وذهب "القزاز "إلى أنها : سميت بروجا لأنها بيوت الكواكب فكأنها بمنزلة الحصون لها، وقيل : سميت لارتفاعها) [1].

فسياق الآيات يتحدث عن عظم هذا القرآن وعلو منزلته ومكانته وكونه هداية للناس، وإثباتا لقدرة الخالق وألوهيته، من هنا كان المعني السياقي للفظة (بروج)(الكواكب والأفلاك السماوية دون غيرها لتؤدي ذلك المعنى وهو علو مكانها وارتفاعها وكونها هداية للناس في برهم وبحرهم، كان ذلك متناسبا في السياق مع وصف السماء بالزينة للناظرين

فقال : (وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ) أي لكل من له دقة نظر في دلائل الوحدانية لا عائق له عن معرفة ذلك إلا عدم صرف النظر إليه بالبصر والبصيرة[2] — والله أعلم –.

ولما كان حال المخاطبين حال المنصرفين عن أدلة وحدانية الله جاء الخبر بالضرب الإنكاري، " وافتتح الكلام بلام القسم (وَلَقَدْ جَعَلْنَا) وحرف التحقيق تنزيلاً للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردد فأكدّ لهم الكلام بمؤكدين، ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك "[3].

---

(١) نظم الدرر، ٣٠/١١.

(٢) ينظر : نظم الدرر، ٣٢/١١.

(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ٢٣/١٣.

الموضع الثاني : ورود لفظة البروج بمعنى(الكواكب والأفلاك السماوية) في ضوء السياق القرآني في سورة الفرقان، في قوله عز وجل :﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ (الفرقان : ٦١).

" يقول تعالى ممجدًا نفسه وكاشفا عن عظمة خلقه في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام...، وجعل فيها سراجًا وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود...، (وَقَمَرًا مُّنِيرًا) أي مشرقًا مضيئًا بنور آخر غير ضوء الشمس كما قال تعالى :﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس : ٥) (١).

إذا تأملنا سياق سورة الفرقان نجد أنها قد افتتحت بإعلاء شأن القرآن الكريم ، وجلال مُنزله، وما فيه من الهدى، ثم عرج السياق على قضية إثبات البعث والجزاء، والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، ثم يمضي السياق ليقيم الأدلة والبراهين الواضحة على وحدانية الله، وتفرده بالخلق.

و مدار السياق فيهذه السورة يدور حول كونه . ﷺ . مبعوثًا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جُعل براعة استهلالها (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان : ١) (٢).

ولما كان سياق السورة يدور حول إثبات وحدانية الله عز وجل أمام هؤلاء المعاندين المكابرين،ناسب ذلك أن يكون المعنى السياقي للبروج (الأفلاك والكواكب السماوية) ليتسق معنى اللفظة مع سياق السورة فظهور الكواكب وكشفها للظلمات لظهورها كظهور آيات الحق في كتابه الكريم وهدايته للناس إلى السراط المستقيم.

(١) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ط دار القلم، بيروت، ط٢، ٢٧٨/٣.
(٢) التحرير والتنوير، ٦/١٩.

ومن يمعن النظر في مسمى السورة (الفرقان) والتي تعني التفريق الواضح بين طريقي الحق والضلال، يمكنه الربط بين مسمى السورة والمعنى السياقي (للبروج)، فكما أنعم الله الله على خلقه بالقرآن الكريم الذي يفرق بين الحق والباطل، أتم نعمه عليهم بالبروج (الكواكب)من الشمس بضيائها، والقمر بنوره ؛ ليهديهم بها في ظلمات البر والبحر، وينير لهم طريقهم[1]، ولتكون الهداية هداية حسية ومعنوية دائمة ومتصلة ليلها بنهارها.

ولما كان المقام مقام امتنان قال سبحانه(تبارك الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) فقد امتن عليهم بحسن منظرها للناس، " والكلام جار على التشبيه البليغ لأن حقيقة السراج : المصباح الزاهر الضياء. والمقصود : أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج، أو خلق النجوم كالسراج في التلألؤ وحسن المنظر"[2].

وكذلك في (وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) كناية، حيث كنى الحق – سبحانه وتعالى – عن الشمس بأحد أوصافها وهو السراج.

ومن هنا يبرز جمال المعنى السياقي للفظة لجريانها في مجرى مراعاة النظير وذلك في الجمع بين (بروجًا) و (سراجًا) ولو ذُكرت الشمس صراحة لما ناسب هذا البيان.

وهناك من المفسرين من حمل لفظة (البروج) على معنى القصور، وهذا المعنى غير صحيح ؛ لأن غرض السورة هو إثبات وحدانية الله من خلال بثّ آياته في كونه وهي الكواكب والأفلاك السماوية، وإذا كان المقصود من البروج هنا القصور في الجنة لما خدم هذا المعنى ذلك الغرض بهذا الاستدلال وهو هداية الناس لعبادته جل وعلا، وقد أحسن العلامة الآلوسي في توجيه ذلك حيث قال : (عن قتادة أن البروج قصور على أبواب السماء فيها الحرس، وقيل : هي القصور في الجنة، قال الأعمش وكان

(١) ينظر : نظم الدرر، ١٣/٤١٧.
(٢) التحرير والتنوير، ١٩/٨٥.

أصحاب عبد الله يقرؤون في السماء قصور، ويعقب بأنه يأباه السياق لأن الآية قد سيقت للتنبيه على ما تقوم به الحجة على الكفرة الذين لا يسجدون للرحمن جل شأنه وبيان أنه المستحق للسجود ببيان آثار قدرته سبحانه وكماله جل جلاله، والظاهر أن يكون ذلك بذكر أمور مدركة معلومة لهم وتلك القصور ليست كذلك) [1].

والآلوسي رحمه الله قد درس هذه المفردة القرآنية في ضوء السياق بهذا المعنى، والغرض وهو منهج السلف من العلماء رحمهم الله.

الموضع الثالث : ورود لفظة البروج بمعنى(الكواكب والأفلاك السماوية) في ضوء السياق القرآني في سورة البروج : في قوله عز وجل :(وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١) (البروج : ١).

بالنظر إلى دلالة افتتاح السورة بالقسم بالسماء، وبروجها، نجد أن دلالة السياق تحمل لفت الانتباه إلى عظم تلك الأمور المقسم بها، كما تحمل تشويقا إلى ما يرد بعد المقسم عليه، فبعضها تدل على عظيم قدرته سبحانه المستوجبة تفرده بالإلوهية[2].

والمتأمل في المقاصد التي تحملها دلالة بدء السورة بالقسم في قوله : (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ) فالله إذ أقسم، يجد أن تلك الدلالة تحمل في طياتها مقاصد عدة، منها،توجيه الانتباه إلى النظر إليها بعانية، والتدبر لما فيها من خير وفائدة من جهة، وللدلالة على جبروت الخالق وعظمته وسعة سلطانه وكمال حكمته من جهة ثانية، وتشويقا لما يرد بعد المقسم عليه من جهة ثالثة ؛ ولهذا كان المعني السياقي الأنسب للفظة، لتتناسي مع المقاصد السابقة هو (الأفلاك السماوية)، ولأن الحق جل وعلا

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ط إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ١٩/٤٠.

(٢) ينظر : نظم الدرر، ٢١/٣٥٣.

ربط بين السماء وما فيها من أبراج هائلة، وتقييد القسم بالسماء بوصفها ذات بروج فيه لفت لانتباه المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات العظيمة، وهذه الأحوال من دلالة واضحة على عظمة قدرة الخالق عز وجل وسعة علمه إذ خلقها بمقادير لينتفع الناس بها.

ولو اعتبرت البروج هنا بمعنى القصور لما أعطت تلك المزية والخصوصية للفظة.

أما " مناسبة القسم لما أُقسم عليه أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود ولما كانت الأخاديد خطوطًا مجعولة في الأرض مستَعرِة بالنار أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجا وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار "[1].

ويجمع السياق بين السماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود... " تلتقي جميعًا في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود... كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث، وتوزن فيه حقيقته ويصغى فيه حسابه، وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود "[2].

المطلب الثاني – ورود كلمة البروج بمعنى (الحصون والقصور) في ضوء السياق القرآني :

لقد جاءت لفظة (البروج) في المواضع الثلاثة السابقة بمعنى (الكواكب والأفلاك السماوية)، بينما أنفردت في سورة (النساء) بتلك الخصوصية بمعنى (الحصون والقصور) ، وذلك في قول الحق تبارك وتعالى :(أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى

(١) التحرير والتنوير، ٢١٢/٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م، ٣٨٧٣/٣٠/٦.

بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾) (النساء : ٧٨).

أولا : بالنظر إلى سياق الآية الكريمة يدور حول المنافقين وتوجه الخطاب لهم فتقول : في أي مكان وجدتم فلا بد أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت، فإن تصب هؤلاء المنافقين حسنة من نصر وغنيمة يقولوا من الله، وإن تنلهم سيئة من هزيمة وجوع يقولوا بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه.

وردت هنا لفظة (البروج) ولكنها جاءت بمعنى القصور السامية[١].

فالسياق يتحدث عن المنافقين وفعلهم، وحدد أنهم سيموتون ولو بعد حين في أماكن تواجدهم أو أينما ذهبوا وصاروا، مما يُدلل على الأماكن، وليس على الكواكب كباقي الآيات التي ذُكرت فيها البروج[٢].

فلو سكنوا تلك البروج وهي القصور العالية، وتلك الحصون الرفيعة المنيعة فلا بد أن الموت مدركهم، لذا جاء قوله : (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ) بالأسلوب الخبري مراداً منه الترهيب والتحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها، وقد أكد ذلك بما النافية لنقيض ما تضمنه الكلام لأن حالهم حال من ينكر الموت بغير قتال[٣].

(١) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، أبو عبد الله الحسين الدامغاني، ت : محمد حسن الزفيتي، ط لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٤١٦هـ، ١٤٩/١.
(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم، ٤٥٢/١.
(٣) نظم الدرر، ٣٣٤/٥.

ف (البروج) انفردت بمعنى الحصون والقصور العالية ودلّ على ذلك المعنى سياق الحال والمقام، وفي قوله : (يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ) استعارة مكنية شبه فيها الموت بكائن حي يطارد عدوًا، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو (الإدراك)، و هذه الاستعارة ما هي إلا " إشعار بأن القوم لشدة تباعدهم عن أسباب الموت وقرب وقت حلوله إليهم بمر الأنفاس والآنات كأنهم في الهرب منه وهو مجد في طلبهم لا يفتر نفسًا واحدًا في التوجه إليهم "[1].

كما يدل غلى ذلك صيغة المضارع في الفعل (يدرككم)، والذي يدل على مزيد من الفزع الذي أصابهم من الموت وتجدده، ومحاولة الفرار منه وكأنه عدو يلاحقه فلا يهنأ بعيش ولا طمأنينة، فلو قال : أينما تكونوا تموتوا.. لما حصل ذلك المعنى.

أضف إلى ما سبق تنكير لفظة (البروج) وذلك للتعظيم والتكثير، أي حصون كثيرة، محكمة البناء والحفظ، وقد ناسب جمع الكثرة وصف تلك الحصون بـ (المشَّيدة) " حيث جاءت بالتشديد المراد به التكثير، فهي مطولة، كل واحد منها شاهق في الهواء منيع، وهو مع ذلك مطلي بالشيد أي بالحصن "[2].

وقوله : (وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ) قال عنها أبو حيان : "جاءت بنفس المعنى لدفع توهم النجاة من الموت، ولإظهار استقصاء العموم في (أَيۡنَمَا) "[3].

فهذه جملة شرطية ضرب من الاحتراس لدفع التوهم المتولد من حرصهم البالغ على البقاء ومحاربة الموت ولو بالبقاء بتلك الحصون المنيعة، " وجواب لو محذوف اعتمادًا على دلالة ما قبله عليه ؛ أي لو كنتم في بروج مشيدة يدرككم الموت، والجملة معطوفة

(١) روح المعاني، ٥/٨٧.
(٢) نظم الدرر، ٥/ ٣٣٤.
(٣) البحر المحيط، محمد بن حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ. ١٩٩٠، ٣/ ٢٩٩.

على أخرى مثلها ؛ أي لو لم تكونوا في بروج مشيدة ولو كنتم... إلخ، وقد اطرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة ؛ فإن الشيء إذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى، وعلى هذه النكتة يدور ما في لو الوصلية من التأكيد والمبالغة "[1]

مما سبق نخلص إلى أن البروج جاءتفي ثلاثة مواضع بمعنى (النجوم والأفلاك السماوية)، وذلك في سياق عرض الأدلة والبراهين على قدرة الله وألوهيته، من خلال لفته لانتباه المخاطبين لتلك الأجرام السماوية، وكيف أنها هداية لهم، وكيف أحاط الله بهذا الكون علمًا ؟ أفليس هو أحق من يعبد ؟ !

وانفردت (البروج) في موضع واحد ببعنى (الحصون والقصور) وذلك في سياق الحديث عن المنافقين، وخوفهم من الموت، وكيف أنهم لو ذهبوا إلى تلك الحصون الرفيعة المنيعة فلابد أن الموت محيط بهم، فدلالة الحال والمقام أعطت تلك اللفظة (البروج) مزية ذلك المعنى وخاصيته.

(١)تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، ط. د ، ٢/٢٠٤-٢٠٥.

المبحث الثاني

ورود معنى لفظة (الأسف) في القرآن

في ضوء السياق القرآني.

المطلب الأول – ورود كلمة (الأسف) بمعنى (الحزن والحسرة) في ضوء السياق القرآني :

وردت كلمة الأسف في القرآن في أربعة مواضع.اشتركت في ثلاثة منها في معنى (الحزن والحسرة)، وذلك في سورة (الأعراف –و ويوسف – طه) ، بينما انفردت في موضع واحد بمعنى آخر وهو (الغضب)، وذلك في سورة (الزخرف).

الموضع الأول – المعنى السياقي للفظة المفردة (الأسف) بمعنى (الحزن والحسرة)في سورة الأعراف :

من المواضع التي وردت فيها لفظة (الأسف) بمعنى الحزن والحسرة في قول البارئ عز وجل : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ (الأعراف : ١٥٠).

تأتي الآية الكريمة في سياق قصة موسى –عليه السلام– مع قومه حيث اتخذوا العجل إلهًا في غيبة موسى، وكان ذلك خيانة منهم له –عليه السلام– فضاقت به الدنيا وتجمعت في صدره الهموم و الغموم، وامتلأ غضبا واحترق أسى وألقى الألواح التي تلقاها من ربه بعد أربعين ليلة قضاها في انتظارها، ألقاها في الأرض وفيها الهدى والنور، وصبّ جام غضبه على أخيه هارون الذي استخلفه على قومه مدة غيابه عنهم، فلم يستطع رد بنى إسرائيل عن فعلهم، فقام بقبض شعر لحيته ورأسه بقوة وأخذ يسحبه على الأرض.

تأتي لفظة (الأسف) هنا بمعنى الحزن الحزن الشديد،بل أشد الحزن، أسَفَ، كَفَرِحَ، والأسف : الأجير، والحزين، والعبد[١].

فما كان حال موسى –عليه السلام– بعد أن رأى حال قومه إلا أن غضب غضبًا شديدًا، وحزِنَ حُزنًا شديدًا مغتاظًا من ذلك كله[٢]، وهذا ما دلّ عليه حال المقام والسياق، فقد حزن على فعل قومه من تركهم عبادة الخالق إلى عبادة العجل فقوله : (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ)كناية عن اشتداد ذلك الغضب وهي صورة حية موحية لآثار الغضب، حيث صورت لنا هارون في قبضة موسى –عليه السلام– يسحبه على الأرض وهو يتوسل إليه ويسترحمه[٣].

وفي (يَجُرُّهُۥ) بإيثار صيغة المضارعة على الماضي لتصوير المشهد، وكأنه يحدث الآن، ثم لإفادة طول (الجر) وحدوثه مرة بعد مرة، ولو قيل : (فجرّه) لفهم أن الجر حدث مرة واحدة.

ومما يدل على أن لفظة الأسف تدل على الحزن الشديد وهو حزن موسى على فساد أحوال قومه نداء أخيه هارون له (ٱبْنَ أُمَّ) له حيث جاء المنادى بحذف حرف النداء، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع، وحذف حرف النداء لإظهار ما صاحب هارون من الرعب والاضطراب، وللإيجاز كذلك[٤].

---

(١) القاموس المحيط، محمد الفيروز آبادي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ، ص١٠٢٣، مادة : أسف.

(٢) الوجوه والنظائر، ١٤٢/١.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، عبد العظيم المطعني، ط مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م، ٤٠٩/١.

(٤) ينظر : التحرير والتنوير، ٢٩٨/٨، نظم الدرر، ٨٩/٨.

(ٱبۡنَ أُمَّ) " اختيار التعريف بالإضافة ؛ لتضمن المضاف إليه معنى التذكير بصلة الرحم، لأن اخوة الأم أشد أواصر القرابة ؛ لاشتراك الأخوين في الألف من وقت الصبا والرضاع"[1].

فلما شاهد موسى موقف قومه وبلغ به الحزن مبلغه قام بإلقاء اللوم على أخيه، كيف أن أخاه وابن أمه يخذله فيما استخلفه عليه ؟، لهذا كانت لفظة (أم) محققة للمقصد من الدلالة على العطف والرفق أكثر من الاشتراك في الأبوة وهذا دليل على – بلوغ موسى –عليه السلام– مبلغًا من الحزن والأسى على فعل قومه وأخيه.

والسياق قد جمع بين صفتي الغضب والأسف مما يدل على أن معنى(الأسف) هنا مغاير لمعنى الغضب، ولاشك أن الحزن الشديد الذي دل عليه السياق كان هو السبب في اشتداد الغضب، ومن ثم صب الغضب على أخيه الذي استخلفه في قومه.

ومما يؤيد كون الأسف بمعنى الحزن ذلك الاستفهام في قوله تعالى : (أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ) وهو استفهام إنكاري، استدعاه المقام وهو التوبيخ والتسفيه، توبيخا لقوم موسى –عليه السلام– وتسفيها لهم على عملهم، نتيجة حزن موسى . عليه السلام عليهم من فعلهم.

ولما كان الحال والمقام مقام الوعيد والتحذير من عبادة الأصنام ، ولما كان الظن بهم توقع مخالفتهم لموسى . عليه السلام ، ولكن بعد طول مدة، فلما فعلوا ما نُهوا عنه بحدثان عهد النهي، جُعلوا سابقين له على طريقة الاستعارة : شبهوا في مبادرتهم إلى أسباب الغضب والسخط بسبق السابق المسبوق "[2]، كان هذا الحزن الشديد والأسى المفرط على ما وقع من قومه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩٩/٨.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٩٧/٨.

وأيضا في إضافة (أَمْرَ) إلى (رَبِّكُمْ) ثم إضافة ضمير كاف الخطاب إلى رب زيادة تشنيع عليهم بالجحود وكفر النعمة مع كفرهم بالمنعم بها.

أضف إلى ذلك أن لفظة(رب) هنا تدل على المعتني بشؤونكم، والمدبر لأمركم، وفي هذا التعبير توبيخ لهم أيضا.

ثم تأتي دلالة الكناية عن اشتداد الغضب في قوله : (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ) لترسم هذه العبارة صورة حية موحية لآثار الغضب، كما رسمت صورة لهارون وهو في قبضة موسى يسحبه على الأرض، وهو يتوسل إليه ويسترحمه "[1].

الموضع الثاني – المعنى السياقي للفظة المفردة (الأسف) بمعنى (الحزن والحسرة): فيي سورة :(يوسف) في قوله عز وجل : ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ (يوسف : ٨٤).

ترد الآية الكريمة في معرض سياق قصة يوسف –عليه السلام– لتصور لنا مدى حزن يعقوب –عليه السلام– على فقد ولديه حتى أذهب الحزن ببصره.

فلما أخبر أخوة يوسف أباهم بخبر أخيهم (بنيامين) واحتجازه عند ملك مصر (يوسف) حيث ظهر الصواع في رحله (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ) أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم وضيقا لقلبه مما أخبره به.

لما ضاق صدر يعقوب –عليه السلام– بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه في حق بنيامين، تجدد حزنه القديم على يوسف –عليه السلام– وتضاعف في قلبه الحزن القديم مع الحزن الجديد عظم أسفه على يوسف –عليه السلام– فنفث قائلا : (يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ)

(١) التفسير البلاغي للاستفهام، ٤٠٩/١.

ولفظة (الأسف) هنا تأتي بمعنى الحزن الشديد وذلك لدلالة الحال والمقام عليه، فالحزن الجديد هنا إنما تقوية لحزنه القديم الكامن، والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع[1].

فحزن يعقوب –عليه السلام– ليس جديدًا كما صورته الآيات من أول السورة، وكما أوضحه السياق ﴿ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يوسف : ١٨) وقوله : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ (يوسف : ٨٢) فالآية تصور لنا احتساب يعقوب –عليه السلام– الأجر بصبره على فراق ابنيه يوسف وبنيامين، وعلى تلك المؤامرة من أبنائه لتخلصهم من يوسف وأخيه.

وقوله : (وَٱبْيَضَّت عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ) تصريح بذلك الحزن، فالحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين، وابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار.

(يَـٰٓأَسَفَىٰ) " نداء الأسف مجاز، نزَّل الأسف منزلة من يعقل فيقول له : احضر فهذا أوان حضورك، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف "[2].

فسياق الآيات وحال المقام يشيران إلى حالة الحزن الشديد التي تملكت يعقوب –عليه السلام– من خلال أحداث قصته مع أبنائه، فالأسف هنا تحمل معنى الحزن الشديد.

---

(١) ينظر : لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين البغدادي (الخازن)، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، ٤٠٥/٣.

(٢) التحرير والتنوير، ١٠٨/١٢.

وفي تصريحه بمعنى الحزن في قوله : (وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) استعارة تصريحية حيث شبه امتلاء قلبه بالحزن على يوسف بامتلاء القربة بالماء، وشبهه في صبره وتركه الشكوى إلى غير الله، برابط ربط على فم القربة المليء بالماء حتى لا يخرج منها شيء وهذا هو معنى الكظم(١).

الموضع الثالث – المعنى السياقي للفظة المفردة (الأسف) بمعنى (الحزن والحسرة)في سورة طه :في قوله تعالى : (فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦) (طه : ٨٦).

ترد الآية الكريمة في سياق قصة موسى –عليه السلام– مع قومه، فبعد أن قدم موسى عذره إلى ربه على سبقه قومه إلى مكان الوعد فقال : هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ (طه : ٨٤)، قال عز وجل له: فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ (طه : ٨٥)، فوقع هذا النبأ من نفسه موقع الصاعقة، ورجع إلى قومه وهو ممتلئ غضبا وحزنا على ما فعلوه.

ف (الأسف) هنا بمعنى الحزن(٢)، فموسى –عليه السلام– قد بلغ من الحزن أشده، حزن على حال قومه وعبادتهم ذلك العجل، مما جعله يرجع إليهم بعد غضبه وبعد أن تملكه الحزن يستعطفهم(٣) فيقول لهم : (يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ) بأسلوب الاستفهام، وهو

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٧٤/٧.
(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين الجوزي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ص٩١.
(٣) ينظر : نظم الدرر، ٣٢٦/١٢.

استفهام تقرير، كما قال أبو السعود : " والهمزة إنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أي وعدكم بحيث لا سبيل لكم إلى إنكاره "[1].

وهذا النداء والاستفهام يدل على ذلك الحزن الذي تملك قلب موسى –عليه السلام– من قومه نداء استعطاف، وهذا النداء هو تلطف في الخطاب الذي تصاعد حتى بلغ العتاب والتوبيخ، واستفهام تقرير وإنكار لعلهم يرجعون عما نُهوا عنه.

(غَضْبَىٰنَ أَسِفًا) " مراعاة نظير بالجمع بين الغضب والأسف لقرب معنييها، وقدم الغضب على الأسف – وهو الحزن – تقديم السبب على المسبب، لأن للغضب صلة في حدوث الأسف"[2].

فالجمع بين الغضب والأسف في صفة موسى –عليه السلام– يدل على أن الأسف بمعنى الحزن.

(قَالَ يَـٰقَوْمِ) فصلت هذه الجملة عما قبلها لشبه كمال الاتصال، فهذه نزلت منزلة جواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى تقديره : ماذا قال لقومه وقد امتلأ غضباً وحزنًا منهم ؟ وهو ما يسميه علماء المعاني : الاستئناف البياني.

وفي اختيار (الرب) في قوله : (أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) دون الألوهية تذكير لهم بتلك النعمة وذلك الفضل العظيم من الله، وما منّ به عليهم من الإحسان، فهو المحسن لهم بالإيجاد والهداية، ولكن قابلوا ذلك الإحسان بالإساءة وعبادة غيره جل وعلا[3]، وفي هذا كشف عن طبيعة بني إسرائيل ونفسيتهم.

وإضافة (الرب) إلى ضمير المخاطبين (كم) للمبالغة في قبح ما فعلوه، وتوبيخ لهم بعد إنكاره.

---

(١) تفسير أبي السعود، ٣٥/٦.
(٢) التفسير البلاغي للاستفهام، ٣٢١/٢.
(٣) نظم الدرر، ٣٢٦/١٢.

(أَمْ أَرَدتُّمْ أَن تَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ) " شُبِّه انغماسهم في أسباب العذاب بالإرادة والقصد الحاصلة منهم بجامع ما يترتب على كل منهما من حصول شيء إثر شيء ترتب المعلول على العلة فيه.

وفي إسناد الحلول إلى الغضب مجاز عقلي علامة المفعولية لأن الفاعل الحقيقي هو الله، وسر العدول إلى الفاعل المجازي من الفاعل الحقيقي تهويل شأن الغضب وإرادته الانتقام منهم"[1].

المطلب الثاني – دلالة السياق في اللفظة المفردة (الأسف)على (الغضب):

في المواضع الثلاثة المتقدمة جاءت الأسف بمعنى (الحزن الشديد) ، لكن إذا تأملنا في قوله عز وجل : (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾)(الزخرف : ٥٥) نجد أن لفظة (الأسف) هنا أتت بمعنى آخر مغاير وهو الغضب)، وقد كان السياق العام للآية الكريمة هو الرجح لهذا المعنى في محله.

فالآية الكريمة ترد في سياق قصة موسى –عليه السلام– مع فرعون وكيف أن فرعون استجهل قومه واستخف بعقولهم، وأطاعوه وبذلك أصبحوا خارجين عن طاعة الله.

لتأتي النتيجة في قوله : (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا) بالفاء الدالة على الترتيب، أي فعلوا معنا ما يغضب إغضابًا شديدًا[2].

(فالأسف) هنا جاء بمعنى : الغضب، والغضب إرادة الانتقام، فلما اغضبونا كانت النتيجة (ٱنتَقَمْنَا) وذلك بإغراقهم أجمعين، ومن ثم بالغرق جعلهم الله (سَلَفًا)[3]

(١) التفسير البلاغي للاستفهام، ٣٢٢/٢.
(٢) ينظر : نظم الدرر، ٤٥١/١٧.
(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ط دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، ٩٩/١٦.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الزخرف : ٥٦) السلف من تقدّم، أي : جعلهم الله قدوة وعبرة لمن يأتي بعدهم، (وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ) عبرة لغيرهم من الكافرين(١).

فلما تكبر فرعون وتجبر وقال : (قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الزخرف : ٥١) كان الجزاء من ذلك العمل ألا وهو الغرق ليجعله وقومه عبرة لغيرهم.

فمن خلال سياق الآيات تبين أن الأسف معناه الغضب، فكل أعمال فرعون وفسقه داعية لغضب المولى عز وجل ومن ثم انتقامه منهم وذلك بالغرق ليكون عظة لغيره.

لذلك جاء قوله تعالى:(فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ)بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب لتدل على سرعة حلول عقاب الله عليهم وعذابه لهم، وذلك بسبب غضبه عليهم مما فعلوه.

فالله يذكر لعباده أنه ما انتقم منهم إلا بعد أن بالغوا في الطغيان والعناد فكان ذلك سببًا لغضبه، فالله عز وجل لا يعذب إلا بعد فرص كثيرة يستنفذ فيها العبد حظه ويمتلئ وعاؤه ويستحق غضب ربه وما ربك بظلام للعبيد.

(١) ينظر : معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، ٥/٤٠٦.

المبحث الثالث

ورود معنى اللفظة المفردة (الفحشاء)

في القرآن الكريم في ضوء السياق.

المطلب الأول – الفحشاء بمعنى (الفاحشة)،وهي كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.

وردت اللفظة المفردة (الفحشاء) بهذا المعنى السابق في ستة مواضع من كتاب الله تبارك وتعالى،في (البقرة – والأعراف –ويوسف– النحل –والنور– والعنكبوت).

الموضع الأول : في قوله تبارك وتعالى : إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ (البقرة : (١٦٩).

تأتي الآية الكريمة في سياق التحذير من الشيطان وأفعاله، فيقول الحق : إنما الشيطان عدوكم يأمركم بالأفعال السيئة، " وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضا "[1].

(الفحشاء) من الفحش، والفاحشة القبيح من القول والفعل وجمعها الفواحش... قال ابن الأثير : وكثيرًا ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا ويسمى الزنا الفاحشة[2].

(فالفحشاء) تأتي بمعنى الفاحشة لدلالة السياق على ذلك، فالله عز وجل يقول : (إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ) والسوء هو الإثم، من قول القائل : (ساءك هذا الأمر يسوءك سوءًا) وهو ما يسوء الفاعل.

والسوء هنا هو معاصي الله، وسمّاها (سوءًا) لأنها تسوء صاحبها بسوء عاقبتها له عند الله، وسُمي الزنا بالفحشاء لقبح مسموعه، ومكروه ما يُذكر به فاعله [3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/١٧٩.
(٢) لسان العرب، مادة : (فحش)، ٤/٢١٦.
(٣) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن، محمد جرير الطبري، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م، ٢/٨٢.

وبذلك يكون قوله (الفحشاء) من باب (عطف الخاص على العام) لأن السوء يتناول جميع المعاصي، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي[1].

فالسياق يتحدث عن الشيطان وعن وسوسته و تزيينه للأفعال القبيحة والمستكرهة، كما ذكر ذلك في الآية السابقة حيث قال :....وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ (البقرة : ١٦٨).

فكأنهم باتباعهم الشيطان ووسوسته نزلوا منزلة المتردد أو المنكر للحكم،لإتباعهم الإشارات الشيطانية فهم بمنزلة من ينكر عداوته[2].

فالسياق يحدد معنى (الفحشاء) في الآية وهو الفاحشة فالشيطان يوسوس لابن آدم حتى يوقعه في ذلك الوحل.

الموضع الثاني : في قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف : ٢٨).

تأتي الآية الكريمة في سياق الحديث عن المشركين المقلدين لآبائهم، وينسبون لله أنه أمرهم بها.

والسياق هنا يدور حول كشف العورة عند الطواف، وقد وصف هذا الفعل بالفاحشة وهي كل ما يستفحش ويستقبح [3]، ولننظر إلى سياق الآيات لندرك بلاغة المعنى الذي دل عليه السياق و لماذا جاءت (الفحشاء) بمعنى الفاحشة.

---

(١) ينظر : تفسير السعدي، ص٦٤.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير، ١٠٢/٢.

(٣) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد ابن عطية الأندلسي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٣٩١/٢، وتفسير السعدي، ص٢٧١.

فالسياق هنا سياق بيان عظم ما امتن به سبحانه على ذرية آدم من اللباس والرياش والمتاع فقال : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ (الأعراف : ٢٦).

فالله أنزل عليكم لباس يستر عوراتكم ويزينكم، ثم يحذرهم سبحانه من إغواء الشيطان لهم، كما أغوى أبويهم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة ونزع عنهما اللباس لتظهر العورات، حيث يقول عز وجل : يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ.... (الأعراف : ٢٧) فالشيطان إنما يسعى لهتك الستر عن الإنسان وإيقاعه بتلك الفاحشة المستقبحة المستكرهة.

لذلك جاء قوله : (قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ) بتصدير قل : للاهتمام بالقول، وكونه رسالة يجب تلقيها بالامتثال، ومن ثم اسمية الجملة (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ) لتوكيد الإنكار في الاستفهام في قوله : (أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ) وفي ذلك توبيخ لهم على كذبهم واختلاقهم(١).

يقول أبو السعود في (أَتَقُولُون) : " الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه وتوجيه الإنكار والتوبيخ إلى قولهم عليه تعالى مالا تعلمون " (٢).

وفي (أَتَقُولُون) التفات من الغيبة (فعلوا) إلى الخطاب زجرًا لهم وتأنيبًا وتوبيخًا، إذن دلت الآيات بسياقها على أن (الفحشاء) تدل على فعل (الفاحشة).

(١) ينظر : المحرر الوجيز، ٣٩١/٢.
(٢) تفسير أبي السعود، ٢٢٣/٣.

الموضع الثالث : في قول الحق تبارك وتعالى من سورة يوسف : ﴿**وَلَقَد** هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾(يوسف : ٢٤).

تأتي هذه الآية الكريمة في معرض سياق قصة يوسف –عليه السلام– وتذكر ما تعرّض له –عليه السلام– من الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وصموده أمام تلك الفتنة العارمة، (كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ) أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه(١).

(فالفحشاء) هنا جاءت بمعنى (الفاحشة) لدلالة السياق والمقام، حيث ذكر الحق سبحانه وتعالى تلك الفتنة والإغراء من امرأة العزيز وتلك المراودة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ...﴾ (يوسف : ٢٣) فما كان منها إلا أن همت به وهمّ بها، وهذا يدل على أن المقصود من (الفحشاء) الفاحشة وهي الزنا، وهي من المنكرات من الأفعال والأقوال.

" والإشارة في قوله : (كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ) إلى شيء مفهوم مما قبله بتضمنه قوله : (رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ)، وهو رأي البرهان، أي أريناه كذلك الرأي لنصرف عنه السوء.

(١) ينظر : تفسير السعدي، ٣٨٩.

والصرف : نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه، عبر به عن العصمة من شيء يوشك أن يلابس شيئًا "[1].

الموضع الرابع : في قوله تعالى في سورة النحل :{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }.

بالنظر إلى سياق الأية الكريمة التي ضمت كلمة (الفحشاء)، نجد أن السياق يدور حول الجوامع والثوابت لأصول الشريعة الإسلامية، وأن تلك الجوامع ما هي إلا قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، حيث إنها أمرت بثلاثة أمور، لا يصلح شأن الإنسان إلا بها، وهي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، ونهت عن ثلاثة أمور، لا يصلح شأن الدنيا إلا بها، وهي: الفحشاء، والمنكر، والبغي. وبهذه الأوامر الثلاثة والنواهي الثلاثة تستقيم حياة الناس في الدنيا، ويفوزون بالآخرة، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه، وبهما يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه.

ولذلك كانت بلاغة اللفظة(الفحشاء) هو جمعها لكل ما جاوز حدود الله عز وجل، وكل ما استقبحته واستنكرته الشرائع السماوية، حتى تتناسب مع سياق الجوامع من المأمورات والمنهيات.

أضف إلى ذلك أن السياق العام سواء للمأمورات أو المنهيات هو سياق الكليات من مكارم الأخلاق التي أمر بها، وكذلك سياق الكليات من المنهيات التي نهى الله عنها،

(١) التحرير والتنوير، ٤٩/١٢.

فـ(العدل)الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته... فالعدل واجب.

و(الإحسان) فضيلة مستحبة، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى –وإن كان داخلا في العموم– لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

و (الْفَحْشَاءِ) هي كل ذنب عظيم استحفشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

وبهذا صارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به،وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

أمر آخر ساعد في تحديد المعني السياقي للفظة (الفحشاء)،هناك بعض التفاسير تبين سبب نزول الآية، تثبيت الإيمان في قلب "عبدالله بن منظور" الذي اسلم مجاملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ﷺ.، ولما نزلت الآية وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﷺ.وقر الإيمان في قلبه(١).

والمقام هنا والحال حال التثبيت بالكليات حتى إذا ما حصل المقصد أقبل الصحابي الجليل على الجزئيات، والتي توالت فيما بعد في قوله تعالى : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }... (النحل أية ٩١-٩٢)

وعليه تظهر بلاغة كلمة الفحشاء والتي حددها سياق الآية الكريمة

الموضع الخامس : في قوله تبارك وتعالى في سورة النور (: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾) (النور : ٢١)،" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به : يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه، ولا تقتفوا آثاره، بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا، وإذا عتكموها فيهم، وروايتكم ذلك عمن جاء به، فإن الشيطان يأمر بالفحشاء وهي الزنا والمنكر من

(١) –انظر الكشاف أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري –مكتبة العبيكان –١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م –ج٣–ص٤٦٣–٤٦٦ –الطبعة الأولى

القول"[1]، ولولا فضل الله عليكم ما تطهر أحد بتوفيقه للتوبة النصوح، فهو من يرزق من يشاء من عباده التوبة ويزكي النفوس من شركها وفجورها وهو سميع لأقوال عباده، يعلم بمن يستحق منهم الهدى والضلال[2].

وإذا تأملنا معنى (الفحشاء) في هذه الآية الكريمة نجد أن السورة قد بدأت بالحدود الشرعية للزنا والقذف وحد اللعان،ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ.... ﴾ (النور : ٢)، ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ.... ﴾ (النور : ٤) ثم يمضي السياق ليتحدث لنا عن حادثة الإفك إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم....﴾ (النور : ١١).

ثم أتبع جل ذكره بالتحذير للمؤمنين على ما عسى يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين حيث قال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ....﴾ (النور : ١٨) فالسياق والمقام يقتضيان أن تكون لفظة (الفحشاء) بمعنى الفاحشة وهي الزنا وكل ما استفحش من قول وعمل.

" وفي قوله : (لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ) تمثيل مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة معقولة إذ لا يعرف السامعون للشيطان خطوات حتى ينهوا عن اتباعها.

وفيه تشبيه وسوسة الشيطان في نفوس الذين جاءوا بالإفك بالمشي "[3].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٨٨/٩.
(٢) ينظر : تفسير القرآن العظيم، ٢٣٨/٣.
(٣) التحرير والتنوير، ١٤٩/١٨-١٥٠.

الموضع السادس : في قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت : ٤٥).

يخطاب الحق – جل وعلا – نبينا محمد –ﷺ– فيقول : اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك، وتقربَّ إليه بتلاوته وترداده، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق، (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) أي أدم على إقامتها بأركانها وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين، فمن أداها وكان خاشعًا في صلاته، متذكرًا لعظمة ربه، متدبرًا لما يتلو، فقد نهته عن كل فاحشة ومنكر، ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، والله يعلم ما تصنعون منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة[1].

جاءت (الفحشاء) في هذه الآية الكريمة لتدل على معنى (الفاحشة) والمقصود بها قبح ما كان يفعل قوم لوط ، لأن السياق يقتضيه حيث تقدم هذه الآية الكريمة ذكر قصص الأنبياء السابقين " لوط، وشعيب، وهود، وصالح " على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين وما صدر منهم من الفواحش والمعاصي، وقد ذكر المولى – عز وجل – فاحشة قوم لوط وأشار إلى فظاعة ذلك العمل وعظيم فحشه وقبحه حيث يقول جل ذكره : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (العنكبوت : ٢٨ – ٢٩).

(١) ينظر : تفسير أبي السعود، ٧/٤١-٤٢.

ثم يقول تبارك وتعالى : وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ...﴾ (العنكبوت : ٣٨)، فما كان من الشيطان إلا أن حسَّن لهم أعمالهم القبيحة من الكفر والفحشاء حتى رأوها حسنة.

فبعد ما ساق سبحانه عاقبة تلك الأقوام تأتي هذه الآية لترشدهم إلى عمل صالح ينهاهم عن تلك الذنوب والمعاصي وارتكاب تلك الفواحش وهي الصلاة.

فالسياق والمقام يقتضيان أن تكون (الفحشاء) بمعنى الفاحشة.

وقد أشار إلى ذلك المعنى الطبري حيث قال : " إذا كنت في صلاة، فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والفحشاء : هو الزنا، والمنكر : معاصي الله، ومن أتى فاحشة أو عصى الله في صلاته بما يفسد صلاته، فلا شك أنه لا صلاة له "[1].

المطلب الثاني – ورود معنى اللفظة المفردة (الفحشاء)بمعنى (البخل) في ضوء السياق القرآني، في سورة البقرة.

وردت لفظة (الفحشاء) في جميع القرآن بمعنى الفاحشة، بينما نجدها في موضع واحد قد انفردت بمعنى آخر، وهو (البخل) وذلك في قول المولى عز وجل في سورة البقرة : (﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾)(البقرة : ٢٦٨).

فالشيطان يخوفكم الفقر لتمسكوا على ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله (وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ) أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، وفي مقابل ذلك من أمر الشيطان لكم بالفحشاء، تأتي رحمة أرحم الراحمين، حيث يعدهم على إنفاقهم في سبيله مغفرة

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ١٠/١٤٥.

للذنوب، وخلفًا لما أنفقوه زائدًا على الأصل، والله واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق ذلك الفضل والمن(١).

جاءت لفظة (الفحشاء) في هذه الآية الكريمة بمعنى (البخل) لأن السياق يقتضيه حيث وردت الآية في سياق يتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها الإنفاق في الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ (البقرة : ٢٦١)، ثم يضرب المولى – عز وجل – مثلاً للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى فيقول سبحانه : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ (البقرة : ٢٦٥) ثم يمضي بنا السياق لنجد دعاء المولى – عز وجل – للمؤمن بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، ونهيه جل جلاله أن يتيمموا الخبيث منه، حيث يقول عز وجل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ (البقرة : ٢٦٧) فالله سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء،ثم يحذر الله عز وجل من وسوسة الشيطان ليأتي قوله : (ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ).

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم، ٢٧٨/١.

فتكون (الفحشاء) بمعنى البخل، لأنها وردت في آية واردة في سياق الإنفاق في سبيل الله، فالشيطان يخوفهم من الفقر إن أعطوا بعض مالهم.

وقد أشار إلى بلاغة هذا المعنى المفرد للفظة (الفحشاء) الخازن في تفسيره حيث قال : "قال الكلبي : كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا هذا الموضع وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولاً بالفقر، ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء، وهي البخل وذلك لأن البخيل على صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهي التخويف من الفقر، فلهذا قال تعالى : (ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ) "[1].

وفي قوله : (ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ) تقديم، حيث قُدم المسند إليه (الشيطان) على خبره الفعلي ؛ للمبادرة إلى تحقيره، حيث المقام في الآية مقام وعيد وإنذار ؛ وعيد من مغبة وعود الشيطان، وإنذار من الاستسلام لأوامر محرضة على ما يغضب الله.

والمستهدف هو بث الخوف في قلب المخاطب، وحمله على المبادرة إلى احتقار الشيطان ووعوده[2]، لذلك قدم الشيطان على (يعدكم)، والتعبير بصيغة المضارع يدل على استمرارية هذا الفعل وعدم توقفه، فهذا فعل الشيطان دائما.

ولما كانت النتيجة هو فزع المخاطب وإلقاء الرعب في قلبه من الشيطان ووعوده وأوامره من تقديم (الشيطان)، كان لا بد من إدخال الطمأنينة والأنس في قلب المخاطب، فهو بحاجة إلى ما يبدد ذلك الرعب، لذلك قدم المسند إليه لفظ الجلالة (ٱلله) في قوله : (وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًا) وذلك تعجيلا للمسرة وبذلك أعقب الخوف والفزع، السرور والطمأنينة، وهذا من بلاغة ذلك التقديم في هذه الآية، وما كانت لتتحقق لو لم يأت ذلك التقديم.

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل، ٣٧٦/١.
(٢) ينظر : التحرير والتنوير، ٥٢٩/٢.

وفي قوله : (يَعِدُكُم) تشبيه، " حيث شُبِّه إلقاء الشيطان في نفوسهم توقع الفقر بوعد منه بحصوله لا محالة، ووجه الشبه ما في الوعد من معنى التحقق، وحسَّن هذا المجاز هنا مشاكلته لقوله : (وَٱلله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً) فإنه وعدً[1].

وجاءت (مَّغْفِرَة) بالتنكير لإفادة التفخيم والتعظيم، فالله يعدكم مغفرة عظيمة من عنده مقابل ما يعدكم من الفقر[2].

(١) التحرير والتنوير، ٢/٥٢٩-٥٣٠.
(٢) ينظر : تفسير أبي السعود، ١/٢٦٢.

الخاتمة

وبحمد البارئ عز وجل ونعمة منه، وفضله نصل إلى نهاية هذا البحث المتواضع لنذكر بعضًا من نتائجه :

١ – أدرك العلماء القدماء والبلاغيون دور السياق في تقرير المعنى للمفردة القرآنية، وهذا ما أطلقوا عليه : مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومقولتهم الشهيرة : لكل مقام مقال، فكان منهجهم في دراسة الإعجاز البياني للمفردة القرآنية النظر والتأمل في سياقات القرآن ليصلوا إلى سر ذلك الإعجاز.

٢ – للسياق تأثير مباشر على المعنى الدقيق للكلمات وأكثرها أثرًا في تحديد المعنى، فلكل كلمة في القرآن معنى في ضوء سياقها، قد لا يصح هذا المعنى لسياق آخر ؛ لأن مراعاة مساق الكلام ومنحى القول مهم، وإن كان المعنى صحيحًا، فالسياق يُعد أفضل قرينة تكشف عن حقيقة تجمع لدلالات متعددة، يعود للسياق الفضل في اكتسابها لهذه المعاني في ضوء الدلالة اللغوية.

٣ – تكررت لفظة (البروج) في القرآن الكريم لتأتي في ثلاثة مواضع حدده سياق تلك السورة حيث وردت في سياق عرض الأدلة والبراهين على قدرة الله وألوهيته من خلال لفته انتباه المخاطبين لتلك الأجرام السماوية، وكيف أنها خلقت لهداية الناس في ظلمات الأرض والبحر ؟ وكيف أحاط سبحانه بذلك علما ؟ فهو أحق بالعبادة من غيره.

٤ – انفردت لفظة (البروج) بمعنى (الحصون والقصور) وذلك في سياق الحديث عن المنافقين وخوفهم من الموت ومطاردته لهم حتى لو قصدوا تلك الحصون العالية ودلالة الحال والمقام تأبى أن تكون البروج بمعنى الأفلاك السماوية والنجوم، وإنما دلالة على المكان الذي اختاروه ليكون لهم ملاذا من الموت.

٥ – تكررت لفظة (الأسف) في القرآن لتأتي بمعنى الحزن والحسرة، وذلك في ثلاثة مواضع، في سياق قصة موسى –عليه السلام– فموسى قد أصابه غضب من فعل قومه وسفههم وعودتهم إلى الكفر فما كان موسى –عليه السلام– إلا أن تملكه الغضب والحزن حتى قام بسحب رأس أخيه، أما يعقوب –عليه السلام– فقد تملكه الحزن بفقد والديه حتى ذهب الحزن ببصره.

فالسياق عندما جمع بين الغضب والأسف دلَّ دلالة واضحة وصريحة أن الأسف جاء بمعنى الحزن.

٦ – تكررت لفظة (الفحشاء) في القرآن الكريم لتدل على (الفاحشة) في ستة مواضع، بينما انفردت بمعنى (البخل) وذلك في سورة البقرة، وفي كل موضع السياق هو الذي يحدد ذلك المعنى، وقد أشار إلى ذلك المعنى المفرد للفحشاء في آية سورة البقرة بعض المفسرين في قولهم : " كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا هذا الموضع " وذكر سياق تلك الآية المستوجب لتلك اللفظة ذلك المعنى المفرد.

وأخيرًا فما هذا البحث إلا عمل بشري سمته النقص، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان منه من خطأ فمن نفسي والشيطان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع والمصادر

١ – القرآن الكريم

٢ – البحر المحيط محمد بن حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ. ١٩٩٠م.

٣– الكشاف أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري –مكتبة العبيكان –١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م —ج٣–ص٤٦٣–٤٦٦ –الطبعة الأولى

٤ – بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، ت : أحمد عبد السلام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.

٥ – البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، ت : محمد أبو الفضل، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ – ١٩٧٢م.

٦ – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٧ – تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبوالسعود محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت، ط. د.

٨ – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، عبد العظيم المطعني، ط مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٩ _ تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ط دار القلم، بيروت، ط٢.

١٠ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ط١، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م، دار الغد الجديد، القاهرة.

١١ – الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ط دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

١٢ – جامع البيان في تأويل القرآن، محمد جرير الطبري، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.

١٣ – دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، ت.د/ محمد رضوان، د/ فايز الداية، ط٢، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، مكتبة سعد الدين، دمشق.

١٤ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، ط إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

١٥ – الصناعتين في الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ت : مفيد قمحة، ط١، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٦ – في ظلال القرآن، سيد قطب، ط١، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

١٧ – القاموس المحيط، محمد الفيروز آبادي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

١٨ – لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين البغدادي (الخازن)، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

١٩ – لسان العرب، جمال الدين بن منظور، ط دار عالم الكتب، الرياض، ط ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٢٠– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد ابن عطية الأندلسي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣.

٢١ – معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

٢٢ – معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت : عبد السلام هارون، دار الفكر، ط ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٣ – مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهاني، ت : صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.

٢٤ – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين الجوزي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٢٥ – نظم الدرر، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ.

٢٦ – الوحدة السياقية للسورة في الدراسات القرآنية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، سامي العجلان، ط١، ١٤٣٠هـ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٢٧– الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، أبو عبد الله الحسين الدامغاني، ت : محمد حسن الزفيتي، ط لجنة إحياء التراث، القاهرة، ١٤١٦هـ. .